

الحمد لله الذي أرسل خاتم النبيين وإمام المرسلين، محمداً - صلى الله عليه وسلم - رحمة للعالمين بشيراً لمن آمن به، واهتدى بهديه، بالقرآن المبين ونذيراً لمن كفر به وخالف سنته بالعذاب المهيمن، وصل اللهم على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم، صلاة تشمل آله ومن تمسك بسنته إلى يوم الدين.

فيقول أفقر العباد إلى الغني الكبير المتعال، محمد تقي الدين بن عبدالقادر الحسيني الهلالي غفر الله ذنبه وستر عيبه: نشأت في بلاد سجمانة، وحفظت القرآن وأنا ابن اثنتي عشرة سنة، ورأيت أهل بلاندا مولعين بطرائق المتصوفة لا تكاد تجد واحداً منهم لا عالماً ولا جاهلاً إلا وقد انخرط في سلك إحدى الطرق، وتعلق بشيخا تعلق الهائم الواق، يستغيث به في الشدائد ويستجد به في المصائب، ويلهج دأماً بشكره والثناء عليه فإن وجد نسخة شكره عليها، وإن أصابته مصيبة اتهم نفسه بالتقصير في محبة شيخه والتسك بطريقته، ولا يخطر بباله أن شيخه يعجز عن شيء في السلاوات ولا في الأرض فهو على كل شيء قدير، وسعت الناس يقولون: من لم يكن له شيخ فالشیطان شيخه. وينشدون قول ابن عاثور في أرجوزته التي نظمها في عقيدة الأشعرية، وفي فروع المالكية، وفي مبادئ التصوف: يصحب شيخاً عارف المسالك يقيه في طريقه المهالك يذكركم الله إذا رآه ويوصل العبد إلى مولاة

ورأيت الطرق المنتشرة في بلاندا قسین:

- ١ - قسم ينتمي إليه العلماء وعلية القوم.
- ٢ - وقسم ينتمي إليه السوقة وعامة الناس.

فالت نفسي إلى القسم الأول، وسمعت أبي وهو من علماء بلدنا مراراً يقول: لولا أن الطريقة التجانية تمنع صاحبها من زيارة قبور الأولياء والاستمداد منهم وطلب الحاجات إلا قبر النبي - صلى الله عليه وسلم - والصحاب، وإلا قبر الشيخ التجاني، وقبور من ينتمي إلى طريقته من الأولياء، قال أبي: لولا ذلك لأخذت ورد الطريقة التجانية، لأنني لا أستطيع أن أترك زيارة جدنا عبدالقادر بن هلال، وجدنا كان مشهوراً بالصلاح وله قبر يزار وهو معدود من جملة الأولياء في ناحية الغرفة من

والطريقة التجانية، والدقاوية، والكتانية، وإن كان أهلها في بلاندا قليلاً، تؤلف القسم الأول، فاشتاقات نفسي إلى أخذ ورد الطريقة التجانية وأنا قد ناهزت البلوغ فذهبت إلى المقدم وقلت له: يا سيدي أريد منك أن تعطيني ورد الطريقة التجانية، ففرح كثيراً، وقال لي: تأخذ الورد على صغر سنك؟ قلت: نعم، فقال: بخ بخ أفلحت ونجحت، فاعطاني الورد وهو:

ذكر لا إله إلا الله مائة مرة، والاستغفار مائة مرة، والصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - بأني صيغة مائة مرة، لكن صيغة الفاتح لما أغلق هي أفضل الصيغ، وسيأتي إن شاء الله ذكر فضلها (الفضل المزعوم عندهم) في هذا الكتاب بعون الله وتوفيقه، وأعطاني كذلك الوظيفة وهي استغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم ثلاثين مرة، وصلاة الفاتح لما أغلق خمسين مرة، ولا إله إلا الله مائة مرة، وجوهه الكمال وهي: اللهم صلي وسلم على عين الرحمة الربانية.. الخ، وسيأتي ذكر ألفاظها اثنتي عشر مرة، وهذه الصلاة لا تذكر إلا بطهارة مائية، فمن كان فرضه التيمم فعليه أن يذكر بدلها صلاة الفاتح عشرين مرة، قال: وإنما اشترطت الطهارة المائية على ذاكراً من النبي - صلى الله عليه وسلم - والخلفاء الراشدين يحضرون مجلس لم يذكرها ولا يزل الورد معه ما دام يذكرها ويجب ذكر الورد مرة في الصباح ومرة في المساء بطهارة تامة كما يشترط في الصلاة، ويكون الذاكر جالساً كجلسة التشهد على الأفضل مغمضاً عينيه مستحضراً صورة الشيخ أحمد التجاني وهو رجل أبيض مشرب بحمرة ذو لحية بيضاء، ويتصور في قلبه أن عموداً من النور يخرج من قلب الشيخ ويدخل في قلب المرید.

أما الوظيفة فيجب أن تذكر جماعة بصوت واحد، إن كان المرید إخوان في بلده، فإن لم يكن له إخوان تجانيون في بلده جاز له أن يذكرها وحده مرة في كل يوم. وأخبرني المقدم الشيخ عبدالكريم المنصوري ببعض فضائل هذا الورد وسأذكرها فيما بعد إن شاء الله واستمررت على ذكر الورد والوظيفة بإخلاص ملتزماً بالشروط مدة تسع سنين، وهناك ذكر آخر يكون يوم الجمعة متصلاً بغروب الشمس وهو: لا إله إلا الله ألف مرة، والأفضل أن يكون مع سماع قبله أو بعده، وهو إنشاد شيء من الشعر بالغناء والتلزم جماعة ثم يقولون جميعاً: الله حي، والمشهد ينبتدهم وهم قيام حتى يخلص عند تواجدهم إلى لفظ آه، آه، ويسون هذه الحالة العمارة، وقد تركوها منذ زمان طويل لأن أبناء الشيخ التجاني لا يستعملون هذه العمارة، وهم يأتون من الجزائر إلى المغرب وقد أشاروا إلى المغاربة أن يتركوا العمارة لأنهم لا يستحسنونها، ولكن في كتب الطريقة أنها فعلت أمام الشيخ أحمد التجاني وبيرضاه وإقراره.

وكنتم كما أصابتي مصيبة استغيت بالشيخ فلا يغيثني، فمن ذلك أني كنت في الجزائر مسافراً منمن نائحة (بركنت) بقرج حدود المغرب إلى (المشرية)، وكان لي رفيق له جمل فقلقه وأوصاني بحراسته وتركني في خيمة وقلنا فيها من خيام أهل البادية، فأنحل عقال الجمل وانطلق في البرية فبقيته فأخذ يستهزي بي، وذلك أنه يبقى وقفاً إلى أن أكاد أضغ يدعي على عنقه ثم يجفل مرج واحدة ويجري مسافة طويلة ثم يقف ينتظرنني إلى أن أكاد أقبضه ثم يهرب مرة أخرى وذلك في نحر الظهيرة وشدة الحر، فقلت في نفسي: هذا وقت الاستغاثة بالشيخ فقتضرت إليه وبالغت في الاستغاثة أن يمكنني في قبض الجبل وإناخته فلم يستجب، فعدت على نفسي بالولم واتهمتها بعدم الإخلاص والتقصير في خدمة الطريقة ولم أتهم الشيخ البتة يعجز عن قضاء حاجتي، ومع أني أخد الطريقة يوصون المرید أن لا يطالع شيئاً من كتب التصوف إلا كتب الطريقة التجانية وقع في يدي مجلد من كتاب (الإحياء) للغزالي فطالعته فأثر في نفسي واجتهدت في العبادة والتزم قيام الليل في ذلك البرد، فبينما أنا ذاك ليلة أصلي قيام الليل أمام الصبيرة التي كنت جالساً فيها يكاد راسي يمس سقفاً إذ رأيت غماماً أبيض سد الأفق كالجلج للمرتفع من الأرض إلى السماء وأخذ ذلك الغمام ينمو مني أتياً من جهة الشرق وهي قبلة المصلي في المغرب والجزائر - حتى وقف بعيداً مني وخرج منه شخص وتقدم حتى قرب مني ثم شرع يصلي بصلاتي وموتماً بي، ووجهه بتب يثاب جارية بنت خمس عشرة سنة، ولم أستطع أن أميز وجهه بسبب الظلم.

ولما شرع يصلي معي كنت أقرأ في سورة ألم السجدة ففزع وتخفت خوفاً شديداً، فخرجت منها إلى سورة أخرى أظنها سورة سباء، ولم أستطع قراءة القرآن مع شدة حظني له بسبب الرب الذي أصابني، فترك السور الطوال وأخذت أقرأ بالسور القصار التي لا تحتاج قراءتها إلى رباطة جأش واستحضار فكر. فصلی معي ست ركعات، ولم أر أحد كلمه، لأن كتاب الطريقة توصي المرید أن لا يشغل بشيء مما يعرض له في سلوكه حتى يصل إلى الله، وتكتشف له الحجب فيشاهد العرش والفرش، ولا يبقى شيء من المغيبات خافياً عليه، ولما طال على زمان الاضطراب دعوت الله في سجود الركعة السادسة فقلت: يا رب إن كان في كلام هذا الشخص خير فاجعله هو يكلمني، وإن لم يكن في كلامه خير فاصرفه عني، فلم سلمت من التشهد بعد الركعة السادسة سلم هو أيضاً، ولم أسمع له صوتاً ولكني رأيته التفت عن السلام إلى جهة اليمين كما يفعل المصلي المنفرد على مذهب المالكية، فإنه يسلم مرة واحدة عن يمينه، السلام عليكم دون أن يضيف إليها رحمة الله

وبركاته، وإن كان مؤتمًا بإمام يسلم ثلاث تسليمات إن كان بيساره
مصل تسليمه عن يمينه وهي تسليمه التحليل وتسليمه أماله لإمام
وتسليمه ثالثة عن شماله للمصلي الذي يجلس عن شماله وقد ثبت
في الحديث الذي رواه أبو داود وصححه الحافظ أن النبي - صلى
الله عليه وسلم - كان يسلم عن يمينه السلام عليكم ورحمة الله
وبركاته وعن يساره السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وهذا هو
الذي ينبغي لكل مصل أن يعتمد عليه سواء أكان إنسانًا أو مأمومًا
أو منفردًا.

وبعد السلام انصرف ومشى على مهل حتى دخل في الغمام
الابيض الذي كان قائمًا في مكانه الذي كان ينتظره، وبعد دخوله
في الغمام فورًا أخذ الغمام يتقهقر إلى جهة الشرق
حتى اختفى عن بصري وكان في قبيلة (حيان) شيخ شيطيني
صالح ما رأيت مثله في الزهد والورع ومكارم الأخلاق وسأذكره
فيما بعد، فسافرت إليه وحكيت له تلك الحادثة فقال لي: يمكن أن
يكون ذلك شيطانًا لو كان ملكًا ما أصابك فزع ولا رعب، فظهر
لي أن رأيه صواب. وبعد ذلك بزم طويل أخذت أندرس علم
الحديث،

فرأيت كتاب (صحيح البخاري) ما وقع للنبي - صلى الله عليه وسلم
- حين جاءه جبريل وهو في غار حراء، فظهر لي أن رأي ذلك
الشيخ رحمه الله غير صحيح وبقيت المشكلة بلا حل إلى الآن
وكنيت حينئذ مشركًا استعيت بغير الله وأخاف غير الله. ومن هذا
تعلم أن ظهور الخوارق وما في عالم الغيب ليس دليلًا على صلاح
ما ظهرت له تلك الخوارق ولا على ولايته الله البتة فإن كل
مريض رياضية روحية تظهر له الخوارق على أي دين كان وقد
سمعنا وقرأنا أن العباد الوثنين من أهل الهند تقع لهم خوارق عظام
وبعد ذلك بأيام رأيت في المنام رجلًا نبهني وأشار إلى الأفق فقال
لي: انظر فرأيت ثلاثة رجال فقال لي إن الأوسط منهم هو النبي -
صلى الله عليه وسلم - فذهبت إليه فلما وصلت إليه انصرف
الرجلان اللذان كانا معه فأخذت يده وقلت يا رسول الله خذ بيدي
إلى الله فقال لي اقرأ العلم ففكرت وعلمت أنني في بلاد الجزائر
وكان الفرنسيون مسؤولين عليها وكان فقهاء بلدنا يكفرون كل من
سافر إلى الجزائر وإذا رجع من سفره وأمرونه بالاعتساف
والدخول في الإسلام من جديد ويعتقون له عقداً جديداً على زوجته
فقلت في نفسي هذا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يأمرني
بطلب العلم، وأنا في بلاد يحكمها النصارى، فيما أن أكون عاصياً
أو كافراً فكيف يجوز لي أن أطلب فيها العلم. هذا كله وقع في لحظة
وأنا لا أزال واقفاً أمام النبي - صلى الله عليه وسلم - فقلت في بلاد

المسلمين أم في بلاد النصارى، فقال لي البلاد كلها الله، فقلت يا
رسول الله ادع الله أن يختم لي بالإيمان فرفع أصبعه السبابة إلى
السماء وقال لي عند الله. وبعدما خرجت من الطريقة التجانية على
أثر المناظرة التي سأذكرها فيما بعد إن شاء الله بزمان رأيت النبي
- صلى الله عليه وسلم - مرة أخرى في المنام على صورة تخالف
الصورة التي رأيته عليها في المرة المذكورة، ففي الأولى كان
طويلاً أبيض نحيفاً مشرباً بحمرة، لحيته بيضاء، أما في هذه المرة
فكان ربعة من الرجال إلى الطول أقرب ولم يكن نحيفاً، ولحيته
سوداء، وبياض وجهه وحمرته أقرب إلى ألوان العرب من المرة
الأولى، وكانت رؤيتي له في فلاة من الأرض وكنيت بعدما خرجت
من الطريقة التجانية تومس نفسي أحياناً بما في كتاب جواهر
المعاني مما ينسب إلى الشيخ التجاني أنه قال: (من ترك ورده وأخذ
وردنا وتمسك بطريقنا هذه الأحمدية المحمدية الإبراهيمية الحنفية
التجانية فلا خوف عليه من الله ولا من رسوله ولا من شيعه أباً كان
من الأحياء أو من الأموات أما من أخذ وردنا وتركه فإنه يحل به
البلاء وأخرى ولا يموت إلا كافراً قطعاً وبذلك أخبرني سيد الوجود
- صلى الله عليه وسلم - بقطة ومناماً) وقال لي سيد الوجود - صلى
الله عليه وسلم - ففراوك فقراني وتلاميذك تلاميذي وأنا مربيهم.
وسأتي من هذه الأخبار وأمثالها إن شاء الله كثير في ذكر فضائل
الأوراد والأصحاب فكنت أنفع هذا الوسواس بأدلة الكتاب والسنة،
وأرجع شيطانه بأحجارها فيفينش ثم يخسأ ويدبر فاراً منهزماً فلما
رأيت النبي - صلى الله عليه وسلم - في هذه المرة خطر ببالي ذلك
فعزمت على أن أبدأ الكلام مع النبي - صلى الله عليه وسلم - بأن
أسأله أن يدعو الله لي أن يختم لي بالإيمان، وأظن القارئ لم ينس
أنني سألته في المرة الأولى فلم يدع لي ولكته رفع أصبعه السبابة إلى
السماء وقال عند الله، فقلت يا رسول الله ادع الله أن يختم لي
بالإيمان، فقلت لي ادع أنت وأنا أؤمن على دعائك، فرفعت يدي
وقلت اللهم اختم لي بالإيمان، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -
آمين وكان رافعاً يديه فزال عني ذلك الوسواس ولكني لم أن مكر
الله تعالى فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، والروايات تبشر
ولا تعثر، وبين هذه الروايات التي دعاني فيها رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - أن يختم الله لي بالإيمان بتأمينه على دعائي والروايات
التي قدمت ذكرها ولم يدع لي فيها، عشرون سنة، وتأولت اختلاف
الصورة وعدم الدعاء في الروايات الأولى والدعاء في الروايات الثانية
بما كنت عليه من الشرك في العبادة وبما صرت إليه من توحيد الله
تعالى واتباع سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والله أعلم

(من مقدمة كتاب الهدية الهادية إلى الطريقة التجانية)

الفكر الصوفي

سلافة شيخ الدكتور

محمد تقي الدين الهلالي

رحمه الله تعالى